

منبع المدينة المقدسة

عبد الرحمن بدر الدين

أطلق اليونانيون اسم "هيرابوليس Hierapolis" أي المدينة المقدسة على ما نسميها اليوم مدينة منبج، وجاءت هذه التسمية بسبب ما لها من حرمة دينية لدى سكانها، ولما تحتويه من معابد وثنية يحج إليها الألوف من الناس وبخاصة الوثنيون فيهم لحضور الاحتفالات الدينية التي كانت تقام فيها، والتي يشرف على تنظيمها وتنفيذها رئيس كهان المدينة، وكان يتميز عن الآخرين بلباسه الأرجواني اللون. وكانت أعظم آلهة هيرابوليس الإلهة أটারغيتس Atargatis، ويعود تاريخ هيكلاها إلى عام 320 ق.م، وإلى جانبه هيكلا آخر لتمثال زوجها الإله حد Hadad رب الصواعق، والعواصف، والأخصاب، ويظهر جالسا على عرش مستندا إلى ثورين⁽¹⁾.

إن السمعة الدينية التي اشتهرت بها هيرابوليس، جعلت اليونانيين يتأثرون بها وذلك عن طريق جنودهم العائدين إلى بلادهم حاملين معهم معتقدات وطقوساً دينية، وبعض ثقافات شعوب المناطق التي قدموا منها، وذلك زمن الإسكندر المكدوني وخلفائه السلوقيين. وقد دفع ذلك أصحاب السلطة في بلاد اليونان إلى الاستعانة برهبان مدينة هيرابوليس لإحياء احتفالات دينية في مدينة ديلوس اليونانية مماثلة لما كان يجري في بلادهم، مما جعل المدينة اليونانية محجاً للوثنيين اليونان وأمثالهم من سكان المناطق المجاورة.

آراء حول "أصل تسمية" منبج:

سيطر الآشوريون على موقع مدينة منبج، عندما أخذوا بالتوسع لبناء إمبراطوريتهم، وكان ذلك الموقع يسمى آنذاك Nappigi أو Nampige أي النبع بينما دعاها الآراميون Nappigu، وقد حُرِف هذا الاسم مع الزمن فأصبح Mabug أي النبع أيضاً.

(1) - الأصول السريانية في أسماء المدن والقرى السورية، وشرح معانيها للخوري برصوم أيوب ص 304. طباعة دار الرها بحلب 2000.

ودعاها اليونانيون باسم Bambyce، كما دُعيت في اليونانية الرومانية باسم Hierapolis أي المدينة المقدسة.

وهناك آراء أخرى حول أصل التسمية، إذ يعتقد أصحابها أن الاسم محرف عن الآرامية القديمة، ومن المعروف أن الآراميين بدأ نجمهم بالصعود بعد أن أخذت الإمبراطورية الآشورية بالتفكك، ونخلص من ذلك إلى القول بأن الآراميين حرفوا التسمية الآشورية إلى لغتهم.

ورأي ثالث أورده ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان إذ يقول:

"ذكر بعضهم أن أول من بناها (والحديث هنا عن مدينة منبج) كسرى لمّا غلب على الشام وسماها (من به) أي أنا أجود فعربت فقيل لها منبج...⁽¹⁾ وكان بها بيت نار للفرس⁽²⁾.

ويرى الخوري برصوم أيوب في كتابه (الأصول السريانية في أسماء المدن والقرى السورية وشرح معانيها) أنها اشتقت من NBAG بمعنى نبع، طلع، برز.. الخ.

وقد أكد المؤرخ الغزي صاحب كتاب نهر الذهب، هذا المعنى وأنها سميت بذلك منبج بسبب وجود عين ماء كبيرة كانت تعرف باسم الرام⁽³⁾.

لَمْ مِنْ تَارِيخِ مَنْبِج:

من المؤسف أن معلوماتنا عن مدينة منبج في ظل الحكم الآشوري قليلة جداً نأد لا تذكر، وكذلك الأمر بالنسبة لعصر الممالك الآرامية، وكل ما نعرفه أن منبج كانت ضمن مملكة بيت عديني الآرامية الواقعة بين البليخ شرقاً وضفتي نهر الفرات الأوسط غرباً، وكانت عاصمتها مدينة برسبب "تل أحمر" حالياً الواقعة إلى الجنوب من مدينة جرابلس.

كما نعرف أيضاً أن هذه المدينة كانت قبيل سيطرة الإسكندر المكدوني على المنطقة تحت حكم أسرة عبد حدد، وهي أسرة آرامية على ما يبدو، وأصبحت منبج في ظلها مركزاً لعبادة الإلهة أثار غاتس ATARGATIS وزوجها الإله حدد، ولقد أعادت زوجة سلوقس الأول بناء معبد أثار غاتس الوثني في بامبيس، للتدليل على مدى احترام السلوقيين لهذه الآلهة، ومما زاد في أهمية منبج أنها أصبحت خط الدفاع الأول في مواجهة الفرس في العصر الهلنستي، واستمرت في لعب هذا الدور في العصرين الروماني والبيزنطي، يشهد على ذلك الآثار المتبقية حتى وقت قريب والمتمثلة في تحصينات الإمبراطور جوستيان لهذه المنطقة. وفي هذه المدينة أرغم الإمبراطور البيزنطي هرقل خصومة الفرس على إعادة الصليب الذي كانوا قد استولوا عليه من مدينة القدس عام 610م، وكان البيزنطيون يعتقدون أن ذلك الصليب هو الذي صلب عليه السيد المسيح، ومن هنا جاءت أهميته للبيزنطيين، وقد بقي عند الفرس حتى عام 630 م، وأشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين البيزنطيين

(1) — معجم البلدان: لياقوت الحموي: الجزء الخامس ص 205.

(2) — الأصول السريانية نقلاً عن حاشية مخطوط يشوع العمودي ص 242.

(3) — نهر الذهب للغزي المجلد 1 ص 395.

والفرس في الآية الكريمة:

"غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين⁽¹⁾".

وعندما بدأت الفتوحات العربية الإسلامية كانت منبج تحت الحكم البيزنطي، إلا أنها تحررت منه زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي كلف عامر بن الجراح "أبا عبيدة" بطرد البيزنطيين من أراضي بلاد الشام، وذلك بعد انتصار القوى الإسلامية في معركة اليرموك مما شجعهم على متابعة الزحف نحو الشمال والشمال الغربي لنشر قيمهم الدينية والأخلاقية التي جاء بها الإسلام.

زحف أبو عبيدة بقواته نحو حلب الساجور، وقدم عياض بن غنم الفهري إلى منبج ثم لحق به⁽²⁾، وقد صالح إنطاكية على شروط هي الجزية أو الجلاء، فجلا بعضهم، وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم منهم ديناراً وجريباً⁽³⁾.

وعمد أهالي مدينة منبج إلى عقد الصلح مع عياض على نفس الشروط التي صالح بموجبها أهل إنطاكية، وقد أقر أبو عبيدة ذلك.

ومدينة منبج هذه تقع في الشمال الشرقي لمدينة حلب، وتبعد عنها نحو 80 كم، وتقوم على أرض فسيحة ترتفع نحو 398 متراً سطح البحر، والمعدل السنوي لمطارها يزيد على 250 مم.

ويغلب على سكان هذه المدينة العمل بالزراعة أو رعي الماشية إلى جانب بعض الحرف الضرورية لتلبية حاجاتهم. ويعتبر القسم الشمالي والشمالي الشرقي للمدينة أكثر تطوراً من القسم الجنوبي، والجنوبي الغربي الذي يغلب على سكانه الطابع الريفي والاهتمام بتربية الدواجن والمواشي.

وإلى الشمال من مدينة منبج وعلى امتداد نهر الساجور تقوم هضاب مغطاة بالأحجار الصوانية، وتعود إلى العصر الحجري القديم المتوسط مما شجع أهالي المنطقة على استخدام تلك الحجارة في صنع أدواتهم الضرورية لحياتهم اليومية شأنهم في ذلك شأن جميع أناس عصور ما قبل التاريخ.

كما استغل سكان المنطقة القدماء، وفرة المياه فيها وقربها من سطح الأرض، وسهولة تناولها، فأوجدوا أنظمة للري وأنشؤوا أقنية للسقاية، فأصبحت المنطقة منتجة للراغبين في الحياة الهادئة المستقرة والتي تجعل من الزراعة وتربية المواشي والدواجن مصدر رزق كبير لهم.

ولقد أشار ياقوت الحموي إلى ذلك عند حديثه عن مدينة منبج بما يلي:

"كان على منبج سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، شربهم من قنيّ تسبح على وجه الأرض، وفي دورهم آبار كثيرة، أكثر شربهم منها

(1) - القرآن الكريم: سورة الروم، الآية 1 - 4.

(2) - فوح البلدان للبلا ذري ص 156.

(3) - المصادر السابق ص 155.

لأنها عذبة صحيحة⁽¹⁾.

كما وصفها ابن حوقل بما يلي: "وبالقرب من بالس مدينة منبج، حصينة، كثيرة الأسواق القديمة، يُصنع فيها نوع من الحلوى معمولة من الزبيب، والجوز والفسنق والسمسم، تصدر إلى حلب وأماكن أخرى، والمدينة قديمة الآثار عظيمة الأسوار في تربة ندية رطبة تميل إلى الصفرة (زعفرانية)، يغلب عليها وعلى مزارعها الأعذاء، والمدينة حصينة عليها سور أزلي، روجي وبقرها مدينة سبخة"⁽²⁾.

ورحالة عربي مشهور هو ابن جبير، زار مدينة منبج وكتب عنها في رحلته ما يلي: "بلدة فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق، تحف بغربها وشرقها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار والماء يطرد فيها، ويتخلل جميع نواحيها، وخصص الله داخلها بآبار معينة شهيدة العذوبة، سلسبيلة المذاق، تكون في كل دار منها البئر والبران وأرضها كريمة تستنبط مياهها كلها، وأسواقها وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً، وأعلى أسواقها مسقفة.... ولها قلعة حصينة في جوفها الخ وأهلها أهل فضل وخير فعماملاتهم صحيحة وأحوالهم مستقيمة⁽³⁾. أجمع هؤلاء الرحالة في وصفهم لمدينة منبج أنها طيبة الهواء، جيدة التربة غزيرة المياه، كثيرة البساتين، والمخازن والدكاكين.. الخ

وقد زارها هارون الرشيد وكان واليها من قبله عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي فسأله الرشيد أن يصف له المدينة فقال: "طيبة الهواء، قليلة الأدواء فقال الرشيد كيف ليها فأجاب عبد الملك سحر كله فقال الرشيد صدقت إنها لطيبة فأجابه بل طابت بك يا أمير المؤمنين وأين يذهب بها عين الطيب وهي برة حمراء وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء في فياف فيح بين قيصوم وشيح" وكان عبد الملك هذا يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة⁽⁴⁾.

لقد اهتم سكان مدينة منبج بالزراعة منذ مطلع العصور الوسطى فزرعوا الحبوب بمختلف أنواعها، والقطن، والقنب وأشجار التوت التي كانت ضرورية لتربية دود القز، وقد أشار إلى ذلك زين الدين بن الوردي في قصيدة نظمها إثر الزلزال الكبير الذي ضرب المدينة عام 1345م وختمها بقوله:

منبج أهلها حكووا دود قز عندهم تجعل البيوت قبوراً
رب نعمهم فقد ألفوا من شجر التوت جنة وحيراً⁽⁵⁾

(1) - معجم البلدان لياقوت الحموي ص 206.

(2) - صورة الأرض: لابن حوقل، أو قاموس الأمكنة والبقاع التي يرد ذكرها في كتب الفتوح جمع علي مجت.

(3) - رحلة ابن جبير ص 23، 28، 236.

(4) - معجم البلدان - ياقوت الحموي ص 206.

(5) - تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي

وعندما احتل الفاطميون سورية الشمالية 406 هـ / 1015 م أصبح صالح بن مرداس سيد حلب. فضم إليه مدينة منبج وتعاقب على هذه المدينة سلطات عدة، فقد سيطر عليها السلاجقة الأتراك ثم انتقلت إلى سيطرة الزنكيين إذ بعد وفاة زنكي 541 هـ / 1146 م قاد ولده نور الدين حملة عسكرية إلى الرها لمحاصرتها ماراً بمدينة منبج مع قواه العسكرية وآلات حصاره، وكان أميرها يومئذ حسان المنبجي، وهو حليف مخلص لنور الدين، والذي باستيلائه على تل باشر عام 546 هـ / 1151 م أنهى بذلك كونتية الرها.

وبعد وفاة حسان المنبجي أعطى نور الدين منبج لولده غازي كإقطاع إلا أن هذا ما لبث أن ثار عليه. مما جعل نور الدين يقتحم المدينة ويعزل غازي ويعين مكانه أخاه قطب الدين إينال. بنى نور الدين مدرسة للشافعية في منبج لابن أبي عصرون بينما بنى قطب الدين مدرسة مماثلة للأحناف.

بقيت منبج تحت سلطة الزنكيين حتى احتلها صلاح الدين الأيوبي 572 هـ / 1176 م⁽¹⁾. وتعرضت فيما بعد عام 638 هـ / 1240 م للنهب والسلب من قبل الخوارزمية الذين أشاعوا فيها الخراب والدمار والقتل⁽²⁾.

وبوفاة الملك الصالح أيوب ملك مصر، واغتيال ولده توران شاه، انتقل الحكم عملياً إلى القائد المملوكي المعز ايبك التركماني الجاشنكير الصالح، ويُعد المؤسس لدولة المماليك والتي استمرت نحو مئتين وسبعين سنة 1250 - 1517 م بفرعيها البحري والبرجي. وقد تعرضت بلاد الشام خلال حكمهم إلى غزوين شرسين: أولهما بقيادة هولاكو المغولي الذي وضع نهاية للدولة العباسية، إثر احتلاله بغداد وقتله للخليفة العباسي وأفراد أسرته عام 1258 م ثم زحف نحو بلاد الشام واحتل القسم الشمالي منها، وارتكب جرائم لا يمكن تصورها في حلب ومنطقتها، ثم اتجه نحو حماة ودمشق، إلا أن ظروفاً استجدت، فاضطر إلى الذهاب إلى إيران بسبب وفاة أخيه الخان الكبير، تاركاً جيشه لإتمام الغزو بقيادة أحد قواده ولكن جيش المماليك بقيادة الظاهر بيبرس تمكن من سحق الجيش المغولي في معركة عين جالوت 658 هـ / 1260 م.

أما الغزو الثاني فكان بقيادة تيمورلنك، الذي غزا في عام 804 هـ / 1401 م شمال سورية واستولى على مدينة حلب ومنبج وهدم هذه الأخيرة بعد أن فتك جنوده بسكانها، كما فعلوا ذلك بحلب ودمشق.

كان آخر سلاطين المماليك قونصوه الغوري الذي هزمه العثمانيون في معركة مرج دابق قرب حلب عام 923 هـ / 1517 م وبذلك انتقلت السيادة من المماليك إلى العثمانيين، وأصبحت منبج جزءاً من أملاك السادة الجدد، وقد استمر الاحتلال العثماني لبلاد الشام نحو أربعة قرون 1517 - 1918.

(1) - تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ص 111.

(2) - المصادر السابق ص 248.

242

وقد شارف عمره على الثمانين 285 هـ/898 م والأرجح أنه دفن في مدينة منبج.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- 1 - الأصول السريالية في أسماء المدن والقرى السورية وشرح معانيها للخوري برصوم أيوب - حلب دار الرها 2000 م.
- 2 - تنمة المختصر في أخبار البشر للشيخ زين الدين بن الوردي - بيروت - دار المعرفة 1970 م.
- 3 - رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة دار مصر للطباعة.
- 4 - الروض المعطار في خبر الأقطار - لمحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والنشر 1356 هـ/1937 م.
- 5 - صورة الأرض لأبي القاسم ابن حوقل النصيبي - بيروت مكتبة الحياة 1979 م.
- 6 - فتوح البلدان للبلاذري - الطبعة الأولى 1913 هـ/1901 م القاهرة - مطبعة الموسوعات.
- 7 - قاموس الأمكنة والبقاع التي مرّ ذكرها في كتب الفتوح - جمع علي بهجت القاهرة - مطبعة التقدم 1324 هـ/1906 م.
- 8 - معجم البلدان لياقوت الحموي الجزء الخامس - بيروت دار صادر 1397 هـ/1977 م.
- 9 - نهر الذهب في تاريخ حلب للغزي، المجلد الأول.
- 10- Emcyclopedce Ole lislam vol.6 Leiden Brill 1991.
- 11- Emeyelopaedia Britoinmica vol 5 - 1989
- 12- Emeyelopaedia Americana vop 14 - 1994

□□□